حفريات

حوارات

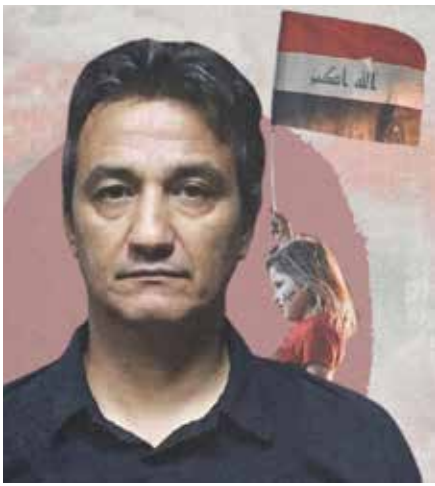

الإسلام السياسي وهوس السلطة

علاء حميد:
العلمانية العربية ردّ فعل على تغوّل الإسلام السياسي

حاوره: محمد جبريل
صحفي مصري

قال الباحث العراقي المتخصص في مجال الأنثروبولوجيا علاء حميد، إنّ من الصعوبة الاكتفاء بعامل واحد لفهم الأزمة العربية؛ لأنّها، كما يرى، أزمة متراكمة، ولم تخضع لمواجهة واضحة، مضيفاً في حواره مع «حفريات» أنّ ميراث مرحلة الاستقلال «صار عقبة أمام إعادة البناء تحتاج إلى تفكيك، من أجل تجاوز عملية الدوران التاريخي التي وقعنا فيها كعرب».

ودعا حميد إلى «فصل العلاقة بين الدين والدولة، وليس بين الدين والمجتمع، كي نعيد القدرة للدولة في تعاملها مع مختلف التنوع العربي»، مؤكداً أنّ التراث الإسلامي ينطوي على الكثير من التحديات التي قد تفتح الطريق أمام ارتفاع الحساسيات المذهبية والدينية، ما يوجب التعامل معه «كمادة علمية تخضع للبحث والدراسة، وليس استخدامها في الصراع السياسي».

ورأى أنّ العلمانية في العالم العربي لم تنل حقها من البحث والفهم، وتأتي، في أغلب الأحيان، كردّ فعل على تغوّل الإسلام السياسي والحركات الأصولية، التي رأى أنّها «مسكونة بهاجس الوصول إلى السلطة؛ لهذا مارست مساومات عديدة كي تحقق مبتغاها».

لا نستطيع تحميل الثقافة العربية المسؤولية الكاملة عن الانهيار السياسي والتفكك الاجتماعي

يذكر أنّ علاء حميد له دراسات حول العلاقة بين الإثنية والمذهبية في العراق وهو عضو مجلس إدارة مؤسسة «مسارات» للتنمية الثقافية التي تعمل وتهتم بالأقليات في العراق، ويكتب في عدد من الصحف العراقية.

وهنا نص الحوار:

*** هل ترى أنّ الثقافة العربية مسؤولة عن الانهيار السياسي والتفكك الاجتماعي اللذين يعانيهما العالم العربي الآن؟**

لا نستطيع، في كلّ الأحوال، تحميل الثقافة المسؤولية الكاملة؛ لأنّها مفهوم واسع وموارب؛ فهي تتشكل بحسب السياقات المختلفة بالمجتمع؛ إذ يكفي أنّها لم تبقَ على معنى واحد ثابت، منذ لحظة صياغتها في مرحلة عصر النهضة وقبله؛ إذ تعامل معها الفلاسفة والمؤرخون في إطار اجتماعي محدّد، فكانت أداة لفهم أحوال تغيّر المجتمع، لكن فيما يخصّ الثقافة العربية، فالقضية شائكة ومعقدة؛ لأنّ هناك تدخّلاً لعوامل كثيرة، قد تصل بنا إلى تحميل الثقافة جزءاً من المسؤولية، فمن يعبّر عن معنى الثقافة تقنياً، وبتبسيط مخلّ، هم المثقفون والأكاديميون والسياسيون؛ فهم الجزء المادي منها، وهذا التوصيف ينقلنا إلى مكانة وحركة المثقف العربي في مجتمعه.

> **من الصعوبة الاكتفاء بعامل واحد لفهم الأزمة العربية لأنّها أزمة متراكمة ولم تخضع لمواجهة واضحة**

القضية لا تكمن في البحث عن اتهام جاهز للمثقف العربي، إنما هي السعي لكشف ما قام به منذ مرحلة الاستقلال حتى الآن، فلو أخذنا مفهوم الالتزام عند المثقف العربي؛ نجد أنه من الصعوبة البالغة أن نمسك بمعناه في ثنايا مواقف هذا المثقف، وهناك شواهد عديدة، وغير مسبوقة، على انتقال المثقفين العرب من طرف إلى آخرٍ، نقيض لما كانوا عليه من موقف واعتقاد فكري وسياسي، قد يقع هذا في حرية الرأي، لكن -في العموم- غابت المنطلقات الفكرية التي دفعت نحو هذا الانتقال؛ إنما السياسة هي التي كان لها الدور الأبرز في إنجاز الانتقال.

الثقافة العربية واقعة تحت ضغط تناقضات متعددة؛ فهي تعيش التناقض مع ما يُطرح من أنماط الثقافة الإسلامية المغايرة لها؛ بل يصل الأمر حدّ الاشتباك معها، منها: «الحرية، الدولة، حرية المعتقد، الاختلاف، القومية والوطنية»، وكلّ ما عملت على تناوله الثقافة العربية من هذه المفاهيم، جاء نتيجة ضغط التحولات العالمية والسياسية، وكأنّ الثقافة مرهونة إلى عامل ردّ الفعل، لا الابتكار والسبق.

*** إذا افترضنا تحرّر الثقافة من ضغط السياسي، هل تكفي «الثقافويّة» لتفسير الأزمة الشاملة التي يعانيها العرب؟**

من الصعوبة الاكتفاء بعامل واحد لفهم الأزمة العربية؛ لأنّها أزمة متراكمة، ولم تخضع لمواجهة واضحة، وبمثال مبسط؛ من أين نبدأ في تشخيص الأزمة العربية قبل مرحلة الاستقلال أو بعده؟ مرحلة تسعينيات القرن الماضي وما واجهه النظام العربي من أزمات عميقة أظهرت هشاشة الكثير من المسلّمات العربية لا سيما «الوحدة، القومية»، هناك مفارقة غريبة في الأزمة العربية؛ هي أنّ الأسباب مشخّصة، لكنّ الحلول غائبة لعوامل ذاتية وموضوعية.

إنّ إنتاج المعرفة في العالم العربي يكاد يكون مُعطّلاً إلى مستوى لا يمكن فهمه؛ هذا ما يجعل الركون إلى تفسير الأزمة بعامل الواحد، دون غيره من العوامل الأخرى التي لها الأهمية نفسها أمراً في غير محله.

*** إذاً، أنت تتفق مع نظرية التبعيّة التي ترى التخلف العربي «بنيويّاً»، بمعنى أنّ البنى الاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة العربيّة مختلة، ولا يمكن اختزال الأمر في مشكلات الثقافة؟**

نظرية التبعية ترى أنّ البنى الاقتصادية والسياسية العربية صنيعة إمبرياليّة، ولا يمكن تجاوزها إلا بالقطع الشامل مع المركز الإمبريالي،

بالتالي، نتحدث هنا عن تخلف ذاتي وليس موضوعياً، وكأنّه يقع في منظور الحتمية التاريخية، وهذا من الصعوبة تقبّله، رغم وجود التبعية التي هي نتاج لفشل مشروع التنمية، إنّنا أمام نقطة حرجة، هي كيفية تفكيك ميراث مرحلة الاستقلال والأدوات التي تمّ بها، وعلى أيّ أساس بني مضمون شعار الاستقلال؛ إذ حين نلقي نظرة أولية على تلك المرحلة، نشعر أننا وقعنا كعرب في عملية دوران تاريخي، ولم يكن خروجاً من مرحلة إلى أخرى مختلفة عنها؛ حيث عدنا إلى نفس الهيمنة، لكن بصورة غير مباشرة، وهذه المرة برضانا.

المسألة تدور حول كيفية مواجهة الخلل الذاتي، ومن ثم فحص التاريخ السياسي لتشكل علاقة المجتمع بالدولة، فهذه العلاقة في معظمها قائمة على الإخضاع، تحت عنوان التخويف من الفوضى وضياع الاستقرار السياسي، إنّ فك عقدة التبعية مرهون بتأسيس لذاتية عربية تمتلك إرادة العمل والثقة بقدراتها.

*** هل الثقافة العربيّة مسكونة بداء الاستبداد، كما يقول المستشرقون، أم أنّها ظاهرة أنتجتها ظروف وتغييرات اجتماعيّة وسياسيّة معينة؟**

لم يظهر مطلب النظر إلى علة الاستبداد في الثقافة العربية، إلا بعد الاصطدام بالفشل المتكرر، على أكثر من مستوى، سواء كان اقتصادياً أم

اجتماعياً، وإلا فبماذا نفسّر هذا الاحتفاء المتكرر بنصّ الكواكبي «طبائع الاستبداد»، كونه انفصل عن السياق العام للثقافة العربية والإسلامية، التي لم تولِ أهمية لتحليل الاستبداد والاعتناء بمعنى الحرية؛ فالأولوية كانت لمعنى العدالة، التي لا يتطلب تحققها بنمط الحكم والسلطان؛ لذلك شاع في النصوص العربية مفهوم «المستبد العادل» الذي كرّس معناه كتابات الأفغاني، والمنتزع -بشكل مباشر وغير مباشر- من مقولات الثقافة الإسلامية «سلطان غشوم ولا فتنة تدوم»، إنّ معنى كلمة «العامة»، والتجاهل البحثي لها في الثقافة العربية، يشير إلى ذلك ويؤكده، فهم لا يحتاجون إلى الإدارة؛ إنما إلى الرعاية التي تنظر لهم على أنهم غير مؤهلين لحكم أنفسهم.

*** هل هذا ما سعت إليه مشروعات تفكيك بنية العقل العربي؟ وبعد خبرات «الربيع العربي» هل يصمد هذا المنطلق ويصلح أساساً للتفكّر في الراهن العربي؟**

إنّ محاولة تفكيك العقل العربي جاءت نتيجة تأزّم إشكالية الفشل المتكرر في إنتاج شكل سياسي مستقر يمتلك مقومات الاستمرارية، وليس الدخول ما بين فترة وأخرى في أزمات الانهيار والعودة إلى نقطة البداية؛ حيث إنّ نمط تفكير أيّ مجتمع مرهون بمستوى إنتاج المعرفة وقدرة السلطة على الربط بين المعرفة والمجتمع، كي تنتقل مخرجات تلك المعرفة إلى وعي المجتمع، وتصبح بنية للتفكير والتحليل، أمّا ما يخصّ الجانب

> **نشعر أننا وقعنا كعرب في عملية دوران تاريخي ولم يكن خروجاً من مرحلة إلى أخرى مختلفة عنها**

الأسـطوري والأيديولوجـي، فهمـا حـاضران في كلّ المجتمعـات، لكـنّ المختلـف هـو مكانتهمـا ودورهمـا في تكويـن رؤيـة تلـك المجتمعـات.

المسألة الدينية والعلمانية

*** المسـألة الدينيّـة هـي إحـدى المسـائل المثـارة منـذ عقـود طويلـة في العالـم العـربي دون حسـم، كيـف يمكننـا التعامـل مـع المـوروث الديـني الـذي يتـم توظيفـه في خدمـة التعبئـة السياسـية؟**

المسـألة الدينيـة مطلـب شـائك وحسـاس؛ كونـه متداخـلاً مع خطـوات العمل عـلى الخـلاص مـن الأزمـات العربيـة الدائمـة، أظـنّ أنّنـا في حاجـة إلى فصـل العلاقـة بـين الديـن والدولـة، وليـس بـين الديـن والمجتمـع، كي نعيـد القـدرة للدولـة في تعاملهـا مـع مختلـف التنـوع العـربي، وإلا وقـع مضمـون الدولـة في توصيـف مذهـبي معـيّن، يجنـح إلى الإقصـاء واحتـكار الحـق العـام في معـنى العيـش والاختـلاف.

كذلـك، إنّ الـتراث الإسـلامي ينطـوي عـلى الكثـير مـن التحديـات الـتي قـد تفتـح الطريـق أمـام ارتفـاع الحساسـيات المذهبيـة والدينيـة، وهـذا مـا يجعلنـا نعـود مـرة أخـرى إلى نمـط إنتـاج المعرفـة الـتي مـن شـأنها تحويـل مواضيـع

التراث إلى مادة علمية تخضع للبحث والدراسة، وليس استخدامها في الصراع السياسي، كما حصل منذ أواخر سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي وحتى اليوم؛ إذ بات التراث وما يتضمنه من أفكار مادة للتعبئة السياسية.

*** ماذا بالنسبة إلى العلمانية في رأيك وسط هذا الجدل؟**

لم تنل قضية العلمانية في العالم العربي حقّها من البحث والفهم، بدليل أنّ ما كتب فيها يكاد يكون قليلاً جداً، قياساً على ما كُتب في مواضيع أخرى؛ إن موضوع العلمانية يكاد يشبه أزمة القومية العربية؛ إذ بدأت من جانب شعوري، ولم يكن فكرياً، لتتحول بعد إلى إيديولوجيا عائمة غير ممسوكة المفاهيم، كذلك العلمانية في عالمنا العربي تأتي، في أغلب الأحيان، كردّ فعل على تغول الإسلام السياسي والحركات الأصولية، في محاولةٍ للسيطرة على ممارسات الحياة العامة في المجتمعات العربية.

القومية العربية

*** بعد النكسة، وصف جورج طرابيشي المثقفين العرب الذين اشتغلوا على التراث الإسلامي بأنّهم ضحايا جرح نرجسي؛ هل كان محقاً؟ وهل كان محمد عابد الجابري سلفيّاً؟**

ربما مقولة جورج طرابيشي فيها الكثير من الحقيقة؛ لأنّها تقارب ما أُنجز من قبل المثقفين العرب في مجتمعاتهم، وهذا لا يعني إجحافاً ممن

اشـتغل، وبحـث بشـكل ملمـوس عـلى مقاربـة الوضـع العـربي بشـكل عمـلي، وهنـاك أمثلـة كثـيرة، أذكـر منهـا؛ مـشروع حسـين مـروة، ومهـدي عامـل، وعزيـز العظمـة، وعـادل ضاهـر، وجـواد عـلي، وجمـال حمـدان.

أمـا الجابـري؛ فالإطـار العـام الـذي اشـتغل عليـه في مشروعـه هـو إعـادة معـنى الإحيـاء العـربي، الـذي لـه ارتبـاط بمعـنى سـلفي بشـكل غـير مبـاشر، لكـن لا يعـني أنّـه تبـنى هـذا الجانـب فكريّـاً، وللجابـري دور مهـم في إنتـاج حقـل معـرفي مهـم داخـل الثقافـة العربيـة، يقـوم عـلى تحليـل العقـل العـربي مـن خـلال مقولاتـه والمفاهيـم الـتي يكـوّن بهـا رؤيتـه للحيـاة والمجتمـع.

*** بخصـوص النكسـة أيضـاً؛ هـل سـاهم الـصراع العـربي الإسرائيـلي في السـيطرة الأيديولوجيّـة للقوميّـة العربيّة؟**

نعـم، سـاهم في ذلـك؛ لأنّ هـذا الـصراع اعتمـد عـلى مواجهـة حـاضرة في الخطـاب السـياسيّ لـدى الطرفـين: القوميّـة العربيّـة والقوميـة اليهوديـة الـتي تحولـت سياسـيّاً إلى الصهيونيـة كمضمـونٍ للدولـة العبريـة، حـتى أنّ هـذا الصراع أدخـل القوميـة العربيـة في محـكّ اختبـار جعلهـا تركـن إلى الجانـب الديـني، عـلى حسـاب الفكـري والمعـرفي.

أي مراجعـة لتاريـخ الأفـكار في العالـم العـربي توضـح أن الأيديولوجيـا المصنوعـة محليّـاً (القوميّـة) كانـت أكـثر جاذبيّـةً ونجاعـةً مـن الإيديولوجيـات

محاولة تفكيك العقل العربي جاءت نتيجة تأزّم إشكالية الفشل المتكرر بإنتاج شكل سياسي مستقر يمتلك مقومات الاستمرارية

ذات المصداقيـة العالميّـة كالماركسـيّة أو الليبراليّـة..

*** لماذا؟**

يمكـن فهـم ذلـك مـن خلال الفـرق بـين المحـلي والعالمـي؛ إذ الأول هـو صياغة داخليـة متعلقـة بقيـم وتقاليـد وسـلوك مجتمـع، أمـا العالمـي فهـو منـتزع مـن سـياقه العـام، حيـث يطبّـق في مجـال غـير مجـال نشـوئه، وإمكانيـة نجـاح ذلـك محـدودة.

لكـن القضيـة تتطلـب الالتقـاط المشـترك مـا بـين المحـلي والعالمـي عـلى أسـاس أنـه منجـز إنسـاني، كذلـك تحتـاج تلـك القضيـة إلى مراجعـة معـنى أن تـزرع مبـدأ وفكـرة جـاءا مـن خـارج سـياقهما الخـاص وكيفيـة إيجـاد عوامـل تقبلهمـا والاعتقـاد بهمـا، فبشـكل مـا حـدث هـذا مـع الماركسـية حـين انطلقـت مـن حـق الشـعوب بالعيـش الكريـم واسـتقلالها ومناهضـة الاسـتعمار، لكنهـا اصطدمـت بالجانـب السـياسي عـلى حسـاب الأيديولوجـي. وعلينـا ملاحظـة أن دفـع المجتمـع لتبـني أفـكار معينـة مرتبطـة بعوامـل «دور المثقـف، الدولـة، وعـي المجتمـع» في مجتمعاتنـا العربيـة؛ فالمثقـف اخـتزل دوره في الحـزب، واخـتزل أطروحتـه في المـشروع السـياسي أولاً، ثـم المـشروع الاجتماعـي ثانيـاً، وهـذا لا يتفـق مـع المطلـب العـربي.

*** لكـن، في غيـاب عالـم عـربيّ موحّـد الاتجاهـات والمصالـح والخـبرات والمشـاعر؛ كيـف نشـأت أيديولوجيـا تجميعيّـة كالقوميـة؟ وهـل كانـت تعـبّر عـن رغبـة حقيقيّـة في التكتـل لمواجهـة الإمبرياليّـة ؟**

إنّ قضيـة القوميـة مرتبطـة أساسـاً بمرحلـة الاسـتقلال، ومـن ثـم الـصراع العـربي الإسرائيـلي، ولهـذا هـي تكوّنـت أساسـاً كشـعور متعلـق بمرحلـة تاريخيّـة معينـة، تحـوّل إلى مبـدأ سـياسي للحكـم، وهـذا مـا حصـل في مـصر والعـراق عـلى اختـلاف التجربتـين في المضمـون والمخرجـات.

ولا شـكّ في أنّ للماركسـية تأثـيراً ملموسـاً عـلى الحـركات القوميـة العربيـة، وهـذا واضـح في كلّ التجـارب الـتي حكمـت في البلـدان العربيـة، الغريـب أنّ القوميـة العربيـة أخـذت تتـلاشى، في ظـلّ صعـود أفـكار مغايـرة لهـا، أو تقـترب مـن أفـكار كانـت أساسـاً مناهضـة لهـا، وهـذا يكشـف عـن أزمتهـا الفكريـة حـول كيفيـة صياغتهـا مـن منظومـة معرفيـة، تعالـج معناهـا عربيـاً، وتضعهـا أساسـاً واضحـاً لا يغفـل أهميـة الدولـة والاختلافـات العربيـة ثقافيّـاً واجتماعيّـاً مـع وجـود المشـترك العـربي تاريخيّـاً.

*** أنـت تلمـح بذلـك إلى تراجـع فكـرة العالمثالثيّـة، لكـن كيـف تشـتغل أيديولوجيـا قوميّـة -أو إسـلامويّة- عـلى مسـتويي التصـور والممارسـة، وهـي لا تعـادي الإمبرياليّـة، ولديهـا اسـتعداد للعمـل بالتنسـيق معهـا؟**

تراجع العالمثالثية مرهون بغياب حركات التحرر وانتهائها، وتحوّل دورها التاريخي أدّى إلى إشكالية بناء الدولة في المجتمعات العالم الثالث، والعجيب أنّ الجزء العربي هو أكثر ما يعاني من هذه الإشكالية.

أما بخصوص وجود أيديولوجيا، قومية أو إسلامية، لا تعادي الإمبريالية، فلم تعد هناك حركات قومية أيديولوجية بالمعنى الصريح والمباشر؛ لأنّها تلقت ضربة عميقة منذ أزمة الخليج الثانية، ولهذا أخذت تركن تلك التجمعات القومية إلى الحركات الإسلامية؛ لأنها تمتلك طاقة التعبئة والحشد وجلب الجماهير إلى الفعل السياسي، وتلك الحركات الإسلامية مسكونة بهاجس الوصول إلى السلطة؛ لهذا مارست مساومات عديدة كي تحقق مبتغاها، وهذه القضية بدأت منذ تسعينيات القرن الماضي؛ حين قبلت بفتح الحوار والاتصال بالقوى الغربية.

*** بخصوص إشارتك إلى غياب حركة قوميّة بالمعنى الصريح؛ هل قضت الأزمة السوريّة على آخر حزب بعثي في العالم العربي؟ وكيف ترى مستقبل سوريا على ضوء ذلك؟**

في تجربة البعث في سوريا خصوصية قائمة على مسك الحكم وإعطاء هامش بسيط للمجتمع؛ لهذا البعث موجود بقوة في السلطة وغير بارز في المجتمع، أظنّ أنّ ما حصل في سوريا تحقّق لظهور نوع جديد من النظام العربي لا يتعلق بما يطلق عليه «محور مقاومة» ونقيضه؛ إنما إعادة الاعتبار

للسلطة كمنتج للأمن، لا سيما بعد الذي حصل في الربيع العربي.

كما يتعلق بالكشف عن حاجة المجتمعات العربية إلى مراجعة قناعاتها الاجتماعية والثقافية، وطرح السؤال الملحّ: هل باستطاعة تلك المجتمعات إنتاج قوى اجتماعية خارج مجال السلطة تسهم في بناء تصورات جديدة وقناعات مغايرة.

*** وما الحال بالنسبة إلى بعث العراق؟ هل خدمته الظروف السياسية (النكسة) ودفعت به إلى السلطة؟ وكيف استمرّ أكثر من ثلاثة عقود في الحكم؟**

هزيمة حزيران ١٩٦٧ فتحت مجالاً واسعاً أمام البعث كي يأخذ السلطة في العراق، تحت ذريعة التصدي لما حصل في النكسة، وإعلاء قضية فلسطين كمحور لشرعيته العربية، أما استمراره في السلطة، فيرجع إلى عدة عوامل، منها قدرته على الإمساك بها أمنيّاً، ومن ثمّ الاستفادة من القدرات الاقتصادية والبشرية في العراق، عن طريق اهتمامه في بداية حكمه بمفهوم التنمية الاقتصادية والاجتماعية؛ إذ عمل البعث على الدخول إلى أغلب تفاصيل الحياة الاجتماعية في العراق، كي يكون حاضراً ومراقباً لما يجري فيه.

معضلة الطائفية والاستبداد

*** أتتفق مع ما يذهب إليه المراقبون؛ من أنّ البعث عمّق من**

المشـكلة الطائفيّـة في العـراق أم أنهـا سـابقة لنشـأته ومتجـذرة فيـه؟

تعميـق المشـكلة الطائفيـة في العـراق، كان يحمـل جانبـين: ذاتيـاً وموضوعيـاً؛ ذاتيّـاً؛ كان هنـاك مـيراث مـن عـدم الثقـة بـين الكيانـات الاجتماعيـة في العـراق، نابـع مـن مرحلـة تأسـيس الدولـة العـام ١٩٢١؛ إذ مـن تلـك اللحظـة انطلـق الخـلاف عـلى سرديـة تكوينهـا، وكذلـك رؤيـة تلـك الكيانـات لمعـنى الحكـم وشرعيتـه الدينيـة والتاريخيـة، أمـا موضوعيّـاً؛ فقـد عمـل حـزب البعـث عـلى اخـتزال الكيـان السـياسي «الوطـن والدولـة» في معنـاه هـو فقـط، كحـزب يمتلـك قـدرات الحكـم والبنـاء والحـق في صياغـة تصـورات النـاس لهـا، ومـن هنـا بـدأت علاقـة المجتمـع بالحـسّ الوطـني تمـرّ بعلاقـة عكسـية.

*** وهـل أثـرت الحـرب العراقيـة الإيرانيـة عـلى الوضـع السـياسي للشـيعة العراقيـين؟ وهـل الأصوليـة الشـيعية ذات أصـل إيـراني، كمـا يدّعـي البعـض، أم مجـرد نمـوذج وإلهـام فحسـب؟**

هنـاك ظاهـرة عجيبـة في العـراق؛ هـي تضخّـم التاريـخ عـلى حسـاب الذاكـرة؛ وهـذا لـه علاقـة بنمـط الـصراع الداخـلي؛ إذ تحـوّل التاريـخ الإسـلامي والسـياسي كمـادة لهـذا الـصراع، فهـو جاهـز ومعتقـد بـه على المسـتوى الشـعبي والاجتماعـي، ولذلـك نُسـيت آثـار الحـرب الإيرانيـة/ العراقيـة عـلى المجتمـع، لكنّهـا ضامـرة في اسـترجاع محـن النـاس أيـام تلـك الحـرب، والآن الجيـل الـذي حـضر تلـك الحـرب أخـذ يغيـب عـن المشـهد الاجتماعـي.

أمـا تأثـير هـذا عـلى الوضـع السـياسي للعراقيـين الشـيعة؛ فهـو واقـع تحـت مـأزق مـن تناقضـات سياسـية احتضنـت إيـران والقـوى السياسـية العراقيـة الشـيعية، واجتماعيـاً هنـاك حساسـية اجتماعيـة أخـذت تنمـو منـذ الحـرب الإيرانية العراقيـة، وحـتى اليـوم، وهـذا التأثـير يأخـذ أبعـاداً كثـيرة جعلـت مـن أثـار تلـك الحـرب مدخـلاً لبلـورة السـعي لتمايـز بـين الجانبـين، وخلـق تميّز واضـح بينهمـا.

*** عـلى ذكـر إيـران؛ مـا احتماليـة حـدوث ردّة عكسـية نحـو العلمانيّـة تحـت ضغـط الجمهوريّـة الإسـلامية كمقلـوب لمـا حصـل في تركيـا؟**

أجـد أنّ مـن الأهميـة بمـكان قـراءة أطروحـة عالـم الاجتمـاع الإيـراني، فرهـاد خفتـارو، عـن «العلمانيـة مـن تحـت»؛ الـتي وضعهـا حـين حلّـل تنامـي النزعـات العلمانيـة داخـل المجتمـع الإيـراني وهو يعيـش في ظلّ حكم الإسـلامي، وحصـل العكـس في تركيـا منـذ مجـيء أتاتـورك للحكـم، إذاً؛ نسـتطيع القـول إنّ العلمانيـة في العالـم العـربي هـي عبـارة عـن نزعـات اجتماعيـة لا تسـتند إلى أسـاس فكـري يحـدّد معناهـا؛ إذ تنحـصر تلـك العلمانيـة في عالمنـا العـربي في البحـث عـن الحريـة والعيـش الكريـم دون تأطـير معـرفي.

*** بالعودة إلى العراق؛ ما الفرق بين الطائفيّة فيها وفي لبنان إذاً؟**

ربمـا قـد يكـون هنـاك تشـابه بـين الطائفيّـة في لبنـان والعـراق؛ بسـبب وجـود بعـض المعالـم المشـتركة بـين كيانـات اجتماعيـة موجـودة في البلديـن،

لكـن صياغـات الطائفيـة بـين الجانبـين مختلفـة؛ لأنّ الطائفيـة في العـراق غـير حـاضرة في المجتمـع، إلا حـين تعمـل السياسـة عـلى إحضارهـا، وقـد تضمـر وتختفـي حـين تكـفّ السياسـة عـن ذلـك، لكـن في لبنـان هنـاك ترسـيخ دائـم سـياسي واجتماعـي، قـد يكـون هـذا قـد حصـل في العـراق بعـد ٢٠٠٣، لكنـه لـم يصـل إلى مسـتواه الاجتماعـي.

*** بمـا أنّ الطائفيّـة مرتبطـة بتقلبـات الوضـع السـياسي؛ فهـل يمكـن أن تعـود قيـم المواطنـة والحـسّ الوطـني المشـترك للعمـل في العـراق؟**

الحديـث عـن الحـسّ الوطـني في العـراق يكتنفـه الكثـير مـن العوائـق؛ فهنـاك مـيراث النظـام السـابق، وسـياق تكويـن الدولـة، كمـا ذكـرت سـابقاً، الـذي أوجـد نوعـاً مـن عـدم الثقـة، وهـذا يقودنـا إلى مقولـة «الخصوصيـة العراقيـة» القائمـة عـلى فكـرة أنّ العـراق لا يُحكـم إلا بالاسـتبداد.

إننـا، في العـراق، في حاجـة إلى فهـم جديـد يسـتوعب مـا تـمّ تقديمـه مـن مقاربات إزاء أزمـة العـراق وصراعاتهـا؛ حـتى لا نقـع في تصـورات نمطيـة، ترتبـط بـأنّ الحكـم في هـذا البلـد لا يسـتقيم إلا بالقـوة، وكأننـا ننـسى أن القـوة غاشـمة وتحتكـم إلى قيـد.

*** وهـل كان حصـار وتفتيـت المجتمـع المـدني العـراقي سـبباً في تـأزم الوضـع الحـالي؟**

الحصـار أسـهم في إنهـاء تكوينـات اجتماعيـة بالكامـل، بـل أوجـد

سـلوكيات وقيمـاً لا تتقبـل التعـدد والاختـلاف والحـرص عـلى البقـاء بـأي شـكل مـن الأشـكال، دون النظـر إلى شرعيـة هـذا البقـاء، ومـن يقـدّم عواملـه.

*** هـل يمكـن إعـادة دمـج الأكـراد في الكيـان الوطـني للعـراق؟ أو هـل سـيتحقق الحلـم الكـردي بتأسـيس دولـة في النهايـة؟**

القضيـة الكرديـة تشـبه إشـكالية تكويـن الدولـة العراقيـة من جانـب التناقض بـين العامـل التاريخـي، الـذي هـو في محتـواه جغـرافي، والعامـل السـياسي المتعلق بنمـط الحكـم، الكـرد مـرّوا بمراحـل طويلـة مـن النضـال السـياسي والاجتماعـي، وكمـا تعلـم؛ هنـاك «حـقّ تقريـر المصـير» وهـم قبلـوا، منـذ سـبعينيات القـرن المـاضي، بحكـم ذاتي، جعلهـم يحققـون جـزءاً مـن مطلبهـم، مـع هـذا تبقـى القضيـة برمتهـا معتمـدة عـلى قـدرة الدولـة في اسـتيعابهم، وإعطائهـم خصوصيتهـم، ونظـر الكـرد للدولـة والقناعـة في البقـاء في كنفهـا.

*** الأزمـة السـورية اسـتدعت مضامـين الحجـج الـتي تخللـت المعركـة الشـهيرة بـين إدوارد سـعيد وكنعـان مكيـة حـول أيهمـا أهـم: التخلـص مـن الاسـتبداد أم مواجهـة الإمبرياليّـة؟ أيهمـا كان محقـاً برأيـك؟**

القضيـة معقـدة فيمـا يخـص المعركـة الـتي دارت بـين كنعـان مكيـة وإدوارد سـعيد، قبـل التدخـل الأمريـكي في العـراق واحتلالـه؛ إذ علينـا مراجعـة الموجهـات الـتي كوّنـت مواقفهمـا إزاء تلـك القضيـة؛ فكنعـان مكيـة كان ينظـر

"نحن بحاجة إلى التركيز على علاقتنا بالمعرفة التي تساعدنا على فهم ما يجري حولنا من تبدلات عميقة"

للقضية من جهة الاستبداد وآثاره، وما يوجده من تشويه عميق للذات البشرية، أما إدوارد سعيد؛ فقد تعامل مع القضية من جهة التحرر من الاستعمار، وتأثير القضية الفلسطينية على ما تبناه من آراء واضح للغاية.

فحين نراجع ما كتبه مكية وسعيد؛ نجد أنّ الأول كتب «جمهورية الخوف»، التي حلل فيها تشكل علاقات الهيمنة والرعب داخل المجتمع العراقي نتيجة الاستبداد، أما الثاني (سعيد)؛ فقد كتب مذكراته تحت عنوان «خارج المكان»، عن المكان الذي لم يتمكن من البقاء فيه بسبب الاستعمار والإقصاء، وهنا أجد أن القضية، كما قلت أعلاه، معقدة.

*** وهل الإنسان العربي محكوم بالمسارين المهلكين الذين كتب عنهما مكية وسعيد: الاستبداد الدموي والعيش في عالم كافكوي (نسبةً إلى الكاتب كافكا) أو الاحتلال أو الهيمنة الاستعمارية؟**

أرى أننا في العالم العربي في حاجة إلى التركيز على علاقتنا بالمعرفة التي تساعدنا على فهم ما يجري حولنا من تبدلات عميقة، فلو تساءلنا كم هي نتاجاتنا حول تشريح معنى الاستبداد كي نخلق من هذا التشريح ميكانيزمات

مضـادة لـه؟ لـم نجـد جواباً كافيّـاً؛ فالقضيـة غـير متعلقـة بالاسـتبداد السـياسي فقـط، بـل هـي منتـشرة بشـكل متخفـي في علاقاتنـا الاجتماعيـة والثقافيـة، حـتى طريقـة تعاملنـا مـع الآخـر وكافـة النشـاطات الحياتيـة، أظـنّ أنّ علينـا الانطـلاق مـن معـنى الاسـتبداد لتحليـل مجتمعاتنـا مـن جديـد، وإلا سـوف نعيـد ونكـرر التفسـيرات نفسها.

الصادق العثماني: خطاب حركات الإسلام السياسي عاطفي هدفه الوصول إلى السلطة

حاوره: ماهر فرغلي
كاتب مصري

قال الشيخ الصادق العثماني إنّ التجديد الديني «ظاهرة صحيّة وضرورة اجتماعية» تمليها ظروف الحياة المتجددة وتطوراتها المتلاحقة، مشدداً على حاجة المجتمع الإسلامي الملحّة اليوم إلى التجديد، لاسيما في ظل التحوّل الحضاري العالمي الذي تواجهه البشرية عموماً.

وعن رأيه في تجربة الإسلام السياسي في الحكم بعد «الربيع العربي»، رأى الباحث في الفكر الإسلامي وقضايا التطرف الديني، أنّها «تجربة فاشلة وستظل فاشلة»، منوهاً إلى أنه كلما تحوّل الإسلام إلى إيديولوجية وحزب وطائفة تبعته الكوارث سواء في البلاد أو العباد؛ لأنّ الإسلام أوسع وأعم وأكبر في أن يختزل في جماعة أو طائفة أو حزب سياسي.

وبين العثماني، خطاب حركات الإسلام السياسي «عاطفي مثالي مهمته دغدغة عواطف المسلمين وجمع ما يمكن جمعه من الأصوات في الانتخابات للوصول إلى السلطة».

والشيخ الصادق العثماني، مغربي مقيم في البرازيل، يعمل باحثاً في الفكر الإسلامي وقضايا التطرف الديني، وهو مدير قسم الشؤون الدينية

الخطاب الديني للإسلام السياسي مهمته دغدغة عواطف المسلمين وجمع ما يمكن جمعه من الأصوات للوصول إلى السلطة

في اتحاد المؤسسات الإسلامية في البرازيل، وخطيب مسجد الاتحاد الإسلامي بساو باولو، له عدة مؤلفات وبحوث منها: «المسلمون في البرازيل عمارة الأرض وبناء الحضارة»، «المسلمون بأمريكا الجنوبية العودة إلى الجذور»، وغيرها من المؤلفات.

في هذا الحوار يتحدث لـ«حفريات» عن رحلته في أمريكا اللاتينية ومراحل الدعوة الإسلامية بها، والعوائق التي يواجهها المسلمون والأقليات في دول القارة.
وهنا نص الحوار:

رحلة الإسلام إلى البرازيل

*** كيف بدأت رحلتك إلى البرازيل؟**

كانت رحلتي مباشرة إلى البرازيل العام ٢٠٠٥ كسياحة، ومن خلالها تعرفت على شعبها وثقافته وحضارته، وأعجبت بهذا البلد الجميل والعظيم، بالإضافة الى تعرفي على الجالية العربية المسلمة، فقررت الإقامة هنا، والعمل في مساجدها ومراكزها الاسلامية كداعية، وهكذا استمر الحال إلى هذا اليوم، والحمد لله رب العالمين.

* كيف دخل الإسلام إلى البرازيل؟

بـدأ ذلـك مـع العـرب والمسـلمين الذيـن هاجـروا مـن البـلاد العربيـة وبخاصـة بـلاد الشـام إلى أمريـكا اللاتينيـة والشـمالية في أواخـر القـرن الــ١٩ وأوائـل القـرن الــ٢٠، لكـنَّ الإسـلام كان موجـوداً قبـل ذلـك في هـذه البـلاد، وإن كانـت هـذه الفـترة التاريخيـة بـين القرنـين الــ١٩ والــ٢٠ هـي الـتي تعتـبر بدايـة إقامـة المجتمـع الإسـلامي في البرازيـل.

لكـن بدايـة وصـول الإسـلام إلى البرازيـل ودول أمريـكا اللاتينيـة كان خــلال القــرن الســادس عــشر مــع أولى دفعــات المســتعبدين الأفارقــة للاشـتغال في مـزارع قصـب السـكر البرازيليـة، ومنذئـذ مـا انفـك الوجـود الاسـلامي يتعـزز بالبرازيـل عـلى مـر العصـور مـع وصـول مهاجريـن مـن دول عربيـة وأفريقيـة.

وكان الوجـود الفعـلي للمسـلمين في البرازيل بداية مع مطلـع العشرينيات، وعنـد وصولهـم عملـوا في بـادئ أمرهـم باعـة متجولـين في الشـوارع والأسـواق الشـعبية (الفـيرا) وعمـالاً في المصانـع والمـزارع... إلا أنّ التجـارة طغـت عـلى نشـاطهم الاقتصـادي، ومـع تطـور الحيـاة الاقتصاديـة والتجاريـة، تمكـن هـؤلاء في ظـرف وجـيز مـن أن يصبحـوا أربـاب مصانـع ومحـلات تجاريـة فخمـة، ومراكـز مهمـة في السـلطات الوطنيـة البرازيليـة.

دخل الإسلام إلى البرازيل مع العرب والمسلمين الذين هاجروا من البلاد العربية وبخاصة بلاد الشام أواخر القرن الـ١٩

وهناك من وصل إلى مراتب عالية في مرافق الدولة، نذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر، حسين جمعة، الذي رأس الاتحاد الإسلامي في ضاحية «باريتوس ـ ساو باولو»، ووضع حجر الأساس لمشروع إقامة مسجد في هذه الناحية، وقد روى لي أحد الدعاة أنه عند وفاته أغلقت الدوائر الرسمية أبوابها وحياه سرب من الطائرات منذ خروجه من داره حتى وضع في قبره.

هكذا بدأت الدعوة الإسلامية في البرازيل تتطور رويداً رويداً، وباكورة هذه الصحوة والخلية الأولى لنموها هي الجمعية الخيرية في مدينة «ساو باولو»، والتي تعتبر الجمعية الأم في البرازيل، كما تعتبر أول جمعية خيرية إسلامية تأسست في جنوب القارة الأمريكية، ويرجع تأسيسها إلى العام ١٩٢٦، وكان من أهدافها إقامة مسجد، لكن هذا الحلم لم يتحقق نظراً للظروف المادية الصعبة التي كانت تمر بها الجالية، واندلاع الحرب العالمية الثانية، فتأخر هذا المشروع حتى العام ١٩٥٧.

والجمعية كانت واعية بالدور الذي يضطلع به الإعلام، حيث قامت بإصدار صحيفة «النشرة» العام ١٩٣٣، ثم صحيفة «الذكرى» العام ١٩٣٧،

ثـم «الرسـالة» والعروبـة أخـيراً اسـتمرت الدعـوة الإسـلامية تشـق طريقهـا في هـذه البـلاد إلى أن أصبحـت تضـم بحمـد الله وتوفيقـه العـشرات مـن المـدارس والمسـاجد، بالمعـنى الصحيـح للمسـاجد، أي بمـآذن وقبـاب، هـذا بالإضافـة إلى عـدد كبـير للمصليـات، وقـد وصـل إلى أكـثر مـن ١٢٠ مسـجداً ومصلى ومـن أهمها، مسـجد البرازيـل بمدينـة «سـاو باولـو» ومسـجد أبي بكـر الصديـق بـ«سـاوبرنارد»- «سـاو باولـو» ومسـجد الشـيخ محمـد بـن نـاصر العبـودي في مدينـة «مارينـكا» - «بارانـا» ومسـجد الملـك فيصـل في مدينـة «لونـد رينـا»، ومسـجد عمـر بـن الخطـاب بمدينـة «فـوز ديكواسـو»، ومسـجد «باراناكـوا»، ومسـجد «كوريتيبـا» و«موجيـه» و«سـانتو أمـارو» ومسـجد «صـلاح الديـن الأيـوبي» وغيرهـا.

كمـا أنّ هنـاك «اتحـاد المؤسسـات البرازيليـة» والـذي تـم تأسيسـه العـام ١٩٧٩، وينـدرج تحتـه مـا يزيـد عـن ٤٠ جمعيـة إسـلامية والـذي يترأسـه الدكتـور محمـد الزغـبي، وكان الهـدف مـن تأسيسـه السـعي في إنشـاء جمعيـات ومراكـز ومسـاجد ومـدارس إسـلامية، وبنـاء علاقـات بـين المسـلمين داخليـاً وخارجيـاً، وقـد أسـهم هـذا الاتحـاد في إنشـاء بعـض المسـاجد خـلال ربـع القـرن المـاضي في مـدن برازيليـة متفرقـة.

*** كيف ترى وضع الدعوة الإسلامية الآن؟**

عمومـاً الدعــوة الإســلامية بالبرازيــل في تحســن وتطــور، نظــراً لكــثرة الجمعيـات والمراكـز العاملـة في الميـدان، وللخصوصيـات الـتي يمتـاز بهـا هـذا

الشعب، فهو فطري طبيعي عاطفي وبريء، محب ويحترم الآخر، وهذا شيء ملموس ومعروف، بالإضافة إلى قوانين البلد، فهي تضمن حرية التعبد والعبادة، وممارسة أي نشاط ديني بدون أي استفزاز ولا مضايقة، كما هو الحال في بعض دول أوروبا؛ لأنّ هذا الشعب ليس له خلفية تاريخية مع العالم الإسلامي تحمله على الكراهية والحقد، بل العكس هو الصحيح، وجل دول أمريكا اللاتينية ما زالت خصبة لزرع بذور دين الإسلام الوسطي الحضاري المتسامح، ولا يواجه المسلمون اليوم من المشاكل في البرازيل سوى المشاكل نفسها التي تواجه جميع السكان، وهي الشكوى من بعض سرقات المال العام، وبعض المشاكل الأمنية المتفاقمة.

فقه الأقليات

*** أي تطبيق لفقه الأقليات تراه ناجحاً؟**

لا بد للأقليات أو الجاليات المسلمة التي تعيش في بلاد الغرب أن يكون عندها فقه خاص بها يراعي ظروفها وأحوالها ومكانها، وبهذا نكون قد ساهمنا في إيجاد فقه مهجري، يكون قد تربى وترعرع في أحضان أقضية الناس وهمومهم ومشاكلهم ؛ لأن الفقه الإسلامي هو عبارة عن تراكمات واجتهادات، انبثقت من واقع الناس وظروفهم وأحوالهم الزمانية والمكانية، فالإمام الشافعي غيّر كثيراً من قضايا فقهه ومن فتاواه لما انتقل من العراق إلى مصر لأن الفتوى تتغير حسب الزمان والمكان ولا يمكننا تصدير الفتاوى الدينية من البلاد العربية والإسلامية إلى الأقليات المسلمة كما

بدأت الدعوة الإسلامية في البرازيل تتطور رويداً رويداً

تصدر السلع، فالجاليات الإسلامية في بلاد الاغتراب تواجه مشاكل عديدة وتحديات خطيرة -وهذا أمر طبيعي- لمسلم يعيش في دولة غالبية أهلها يدينون بغير الإسلام، وهذه التحديات توشك في بعض الأحيان أن تهدد وجودهم.

من هنا تبرز أهمية فقه الأقليات المسلمة كما تبرز أهمية المراكز والجمعيات الإسلامية والخيرية والمدارس العربية والمساجد في تقديم وعرض الإسلام ونشر تعاليمه بين الأجيال المسلمة؛ بغية الحفاظ عليها

> البرازيل بلد منفتح على جميع الديانات والإثنيات وليست كغيرها من الدول الأجنبية التي تعيش بها أقليات إسلامية

وعلى كيانها وشخصيتها المتمثلة في دينها، الذي يدعو إلى التضامن والوحدة والاعتصام بحبل الله المتين وطريقه القويم، والابتعاد عن التفرقة؛ يقول سبحانه: «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم».

في هذا السياق ينبغي وضمن برامج واستراتيجيات مدروسة ومنتظمة، بالإضافة إيجاد وإنشاء فقه جديد للأقليات المسلمة يواكب مستوى العصر وتطوراته؛ حيث اليوم أصبح العالم قرية صغيرة، والإنترنت والتلفاز والراديو والصحيفة والكتاب.. من أهم وسائل الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ويترتب على عدم تسخيرها واستغلالها نتائج سلبية خطيرة.. لأن أهمُّ ما يميِّز هذه المرحلة من عمر التاريخ البشري هي عملية التفجُّر التِّكنولوجي والمعرفي، وثورة الاتصالات والمعلوماتيَّة، وهذه سِمَات مترابطة ومتشابكة، فعمَلِية التطوُّر في إحداها تؤثر في الأخرى.

وبما أننا نحن أمَّة التبْليغ والرسالة؛ كان من الضروري جدّاً أن يُواكِبَ أبناء الجالية ودعاتها هذا التطوُّر، ويُسايرونه بالتعايُش معه وصُحْبته، وفَهْم خصوصياته وأهدافه؛ بغْيَةَ تقديم وحَمْل ديننا ورسالتنا إلى الآخرين،

وإبراز أهدافه الإنسانية النبيلة. هنا تأتي الحاجة الملحة لإنتاج فقه الأقليات المسلمة.. فقه حضاري يوحد ولا يفرق، يبني ولا يهدم، فقه يتعايش مع جميع البشر بغض النظر عن عقائدهم وأجناسهم وأوطانهم.. فنوع هذا الفقه ينبغي أن يسود وسط التجمعات المسلمة في الغرب.

*** ما أبرز مشكلات وعقبات الدعوة التي لمستموها؟**

مشاكل وعقبات الدعوة كثيرة ومتعددة في البرازيل ومن أخطرها اختلاف المرجعيات والمذاهب المتبعة عند كل شيخ أو داعية أو مركز اسلامي.. وإلى حد كتابة هذه السطور لا يوجد للجاليات الإسلامية مراجع للمستفتين، ومجالس فتوى، يعالج من خلاله الكثير من القضايا الفقهية والشرعية التي يتعرض لها المسلم يوميا، وهناك عدد من الدعاة والشيوخ معتمدون من بعض الدول العربية والإسلامية والمراكز الإسلامية المحلية المتواجدة بين أحضان الجالية؛ لكن الكل يدلي بدلوه - يصدر فتاوى وأحكاماً حسب قبيلته وعشيرته أو حسب منابع فكره - واحد يجوّز والآخر يحرم.

هذا الاختلاف يؤدي إلى تشويش وتشكيك في صلاحية هذا الدين وخاصة لدى المسلمين الجدد الذين مازالوا بعد لم يفهموا البعد الإنساني والحضاري لشريعة الإسلام، فالذين درسوا الفقه في الجامعات الإسلامية بالمملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية والمملكة المغربية

الجماعات التكفيرية التي تذبح الناس اليوم نتاج لتراث فقهي وفتاوى قيلت في زمن انكسار الأمة الإسلامية وتخلفها

وسوريا ولبنان والهند وباكستان وإفريقيا.. كل له اجتهاده، والكل يتمسك بفكره، وأغلب الأحيان يتمسك بهواه والحميّة لعشيرته وقبيلته ومذهبه، وهذا أحياناً يقع في مسجد واحد، أو في بعض المناسبات الدينية والوطنية، ماذا تعتقد الناشئة؟ أو بماذا يفسر المسلم الجديد إماماً يسبح الله جهراً والآخر لا يسبح جهراً بعد صلاة الفريضة، أو شخص يحرك سبابته بسرعة، والآخر ولا يحركها أصلاً وهم في صف واحد، بالإضافة إلى من يجعل يده في نحره والآخر على بطنه، والآخر على جنبه الأيمن، والآخر على جنبه الأيسر.. أو بماذا نفسر كذلك كون إمام يحرم في دروسه السلام على «الكفار»، وغداً داعية آخر يجيزه وفي المسجد نفسه؟!..

هذه الخلافات تعمق الفرقة والتشتت وتزرع البغض والكراهية في الجاليات الإسلامية وقاداتها.. وهذا الكلام ليس أوهاماً وتخيلات وتخمينات، وإنما هو واقع نشاهد سلبياته يومياً، كم من مصلٍّ طُرد من المسجد بسبب تمسكه بمذهب معين، وكم من داعية حُرم من الخطابة؛ لأنّه لا يوافق رأي القبيلة والعشيرة والأغلبية المنتصرة في الجمعية أو المسجد، فهذه الاضطرابات في المرجعيات والفتوى هو اضطراب في وحدة الجالية واجتماعهم وتحقق وحدتهم.

صحيح أنّ الفتوى أغلبها متعلق بالعالم الأخروي، لكن ضبط الفتوى متعلق باجتماع الناس وائتلافهم وتحقيق مصالحهم العامة الدنيوية والأخروية. ومن مصالح دنيا الناس عامة، والجاليات المسلمة خاصة أن تضبط لهم الفتوى، لهذا الإسلام أناطها بأهل العلم الراسخين فيه المشهود لهم بالاستقامة والأخلاق الفاضلة؛ لأن الفتوى هي إبلاغ بأنّ مقصد رب العالمين، جل وعلا، من الناس في هذه المسألة شرعاً هو كذا. وقد يكون المقصد هنا برعاية نصٍّ، أو قاعدة ارتكاب أخف الضررين أو دفعاً للحرج، أو إغلاق باب الفتنة كما قال إمامنا مالك رحمه الله: (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها).

تجديد الخطاب الديني

*** كيف ترى دعوات تجديد الخطاب الديني؟**

إنّ التجديد ظاهرة صحية وضرورة اجتماعية تمليها ظروف الحياة المتجددة وتطوراتها المتلاحقة، ولم يكن المجتمع الإسلامي في فترة من فترات تاريخه الطويل أحوج إلى التجديد منه اليوم، حين تواجه البشرية عموما والأقلية المسلمة على وجه التحديد مرحلة تحول حضاري عالمي مذهل ومحير طال المعايير والموازين والمبادئ والأخلاق والقيم، ولم ترسُ سفينته بعد، فما تزال تمخر في عباب بحره المتلاطم، ولا تدري هل تتعثر أو تصل إلى بر الأمان؟ ولا ندرى متى يكون ذلك!

مشاكل وعقبات الدعوة كثيرة ومتعددة في البرازيل

المجتمع الإسلامي هو جزء من هذا المجتمع المتحول السائر، هذه المسيرة الحتمية التي لم تتحدد وجهتها بعد؛ لذلك يحتاج إلى خطاب ديني جديد وفكر جديد تصيغه عقول متنورة وأفهام متبصرة، عاشت هذا الواقع وسبرت أغواره وأنجاده، وحللت ظواهره وأبعاده، عقول متنورة بنور المعرفة، متقيدة بضوابط الشريعة، متحررة من الجمود والتقاليد والعادات البالية، ملتزمة بالثوابت دون المتغيرات الدولية؛ بحيث لا يمكن أن نواجه هذا العصر وما فيه من تحديات وتحولات وإشكالات ومشكلات بكتب قديمة، وفتاوى غريبة، وأحاديث موضوعة، وأفكار صيغت في ظروف مغايرة تماماً للظروف التي نعيشها اليوم، أو نظل أسرى لتراث يشتمل على الكثير من الخرافات والأوهام والإسرائيليات.

الجمعية الخيرية في «ساو باولو» تعتبر أول جمعية خيرية إسلامية تأسست في جنوب القارة الأمريكية

كما لا يجوز شرعاً وعقلاً أنّ تستمر بعض فتاوى علمائنا القدامى مصدراً لشؤون الحلال والحرام، مع العلم أنّ الكثير من شيوخنا ودعاتنا إلى حد اليوم مازالوا يقسمون العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب، انطلاقاً من هذه الفتاوى التي أكلها الفعل الزماني والمكاني وتجاوزتها مستجدات العصر، وما الجماعات التكفيرية والدموية التي تذبح الناس اليوم على الهوية وباسم الله، وتحت يافطة تطبيق شرع الله الإنتاج لتراث فقهي وفتاوى قيلت في زمن انكسار الأمة الإسلامية وتخلفها..!

وعلى هذا لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون هذه الفتاوى دليلنا اليوم نحو الانفتاح والتقدم والنماء والتسامح والتعايش بين أطياف ومكونات وأحزاب ومذاهب وديانات مختلفة يحويها هذا العالم الذي أصبح قرية صغيرة؛ لهذا كان التجديد الديني ضرورة شرعية وواجباً شرعياً تمليه علينا مستجدات الحياة.

حان الوقت للبدء في مسيرة التجديد الديني وغربلة التراث الإسلامي وتنقيته من بعض الأساطير والخرافات والقصص المدسوسة فيه من قبل الأعداء والمغرضين، وإلا سيلفظنا التاريخ وتعادينا شعوب العالم أجمع، وقد بدأت للأسف!

*** هل تأثرتم بما حصل من تنظيم داعش في الشرق؟**

نعـم، كان لتنظيـم داعـش الإرهابي أثر سـلبي جداً على الإسـلام والمسـلمين في العالـم وخصوصـاً الجاليـات المسـلمة في الغـرب، حيـث يقـدم هـؤلاء الصـورة المشـوهة عـن الإسـلام، ممـا يتوجـب علينـا أن نبـذل جهـوداً كثـيرة مـن خـلال وسـائل الإعـلام المختلفـة حـتى نوضـح الصـورة الحقيقيـة للديـن الإسـلامي، وأنّ هـؤلاء لا يمثلونـه وأعمالهـم لا تمـتّ للديـن الإسـلامي بصلـة.

لهـذا ينبغـي عـلى علمـاء الإسـلام والمراجـع الإسـلامية الكـبرى في العالـم الإسـلامي والأزهـر الشريـف القيـام بواجبهـم وإصـدار فتـوى شرعيـة تصنفهـم وتحـدد مصيرهم، بالإضافـة إلى مواجهتهم ومحاربتهم وإقصائهم من المسـؤوليات الرسـمية، وأن تعمـل المؤسسـات الدينيـة في العالـم الإسـلامي عـلى تقويـة التواصل مـع المؤسسـات الإسـلامية الحقيقيـة في الغـرب، وأن يكـون هنـاك خطـاب ديـني متسـامح ومتعايـش ويتمـاشى مـع العـصر، مـع متابعـة ومراقبـة بعـض المساعدات الـتي تتحـول إلى بعـض الجمعيـات والمسـاجد والمراكـز في بـلاد الغـرب، ربمـا قـد تسـتخدم وتسـتعمل في مجـالات دعـم الفكـر الإرهـابي وتقويتـه.

*** ما هو الدور الذي تلعبه الحكومة في البرازيل معكم؟**

إنّ البرازيـل بلـد منفتـح عـلى جميـع الديانـات والإثنيـات، وليسـت كغيرهـا مـن الـدول الأجنبيـة الـتي تعيـش بهـا أقليـات إسـلامية، فهنـا لا

لا يجوز شرعاً وعقلاً أنّ تستمر بعض فتاوى علمائنا القدامى مصدراً لشؤون الحلال والحرام

تستطيع التميز بين هذا أو ذاك على أساس الجنس أو اللون أو العرق أو الديانة، فالجميع يعيشون في انسجام تام وحرية مطلقة لا تمس بمعتقدات الآخرين من قريب أو بعيد.. وفي الولايات البرازيلية المختلفة التي يعيش بها نحو مليون ونصف المليون مسلم ٧٠٪ منهم يتركزون في ولاية «ساو باولو» يمارسون شعائرهم الدينية بحرية تامة، حتى الأطعمة الحلال المذبوحة على الطريقة الإسلامية بإمكانك أن تجدها بسهولة في أي مكان. وهناك أيضاً يوجد نحو ٨٠ مركزاً إسلامياً وجمعية و١٢٠ مسجداً جميعها تعمل في إطار من الحوار والتعاون المشترك دون صراع أو خلاف مذهبي قد يلتجئ ويبرز في أي من الجاليات الإسلامية بالدول الأخرى وخصوصاً في أوروبا.

*** ما أوجه القصور التي تتمنوا علاجها في البرازيل؟**

أكيد هناك قصور وهناك خلافات وإشكالات لدى الجالية المسلمة في البرازيل، لكن نحن نسعى إلى حلها والتغلب عليها، وفي هذا السياق أقول لقد حان الوقت للاتحاد للتضامن.. للتآزر.. فوحدة الجاليات المسلمة في البرازيل تجعلهم في مركز قوة، و«لوبي» قوي يستطيع مخاطبة الجهات السياسية والرسمية وأصحاب القرار في توصيل مطالبها إلى الجهات المسؤولة والمنابر المشروعة.

كما أنها تصبح كتلة ووحدة متماسكة لها مصداقية فعلية في واقع الناس، تتاح لها جمع موارد الجاليات المسلمة من صدقات وهبات وزكوات، وتستقطب جهدهم في بناء المؤسسات الدينية والتربوية والعلمية والثقافية والإعلامية وغيرها، وخاصة إذا علمنا أنّ المسلم معروف بالكرم والسخاء، لكن مشكل الجالية اليوم في البرازيل الشتات وعدم التخطيط، واستشراف المستقبل، بالإضافة إلى إهمال بعض المسؤولين المتصدرين للعمل الإسلامي والدعوي، مع عدم اهتمام المؤسسات الإسلامية الكبرى في البلاد العربية والإسلامية التي تعنى بشؤون الأقليات الإسلامية، وعلى سبيل المثال اسأل كم من مسجد في البرازيل -أنفق عليه ملايين الدولارات- أغلقت أبوابه بسبب بسيط وهو عدم وجود من يدفع أجرة الإمام أو الداعية؟! وذاب الكثير من أبناء الجاليات، وتنصّر من تنصر نتيجة هذه الوضعية وهذه الخلافات بين الدعاة والمشايخ والمؤسسات والمراكز الإسلامية في البرازيل.

> تحتاج الأقليات في بلاد الغرب أن يكون لها فقه خاص بها يراعي ظروفها وأحوالها ومكانها

جناية الإسلام السياسي

*** كيف ترى تجربة الإسلام السياسي في الحكم بعد «الربيع العربي»؟**

رأيي الشخصي أنّها تجربة فاشلة وستظل فاشلة وهذا ليس رجماً بالغيب، وإنما هي تجارب ووقائع عبر التاريخ الإسلامي الطويل؛ بحيث شاهدنا في كثير من محطات هذا التاريخ كلما تحول الإسلام إلى إيديولوجية وحزب وطائفة تبعته الكوارث سواء في البلاد أو العباد؛ لأنّ الإسلام أوسع وأعم وأكبر في أن يختزل في جماعة أو طائفة أو حزب سياسي، فهو نور وتزكية وهداية ومحبة وسلم وسلام وتساكن وتعايش ورحمة للعالمين، وأرى من أوجب الواجبات على الحكومات العربية والإسلامية اليوم القيام بسن قوانين صارمة تحدد من خلالها مجالات الدين ومجالات السياسية، حتى لا تقع الكوارث ويفني بعضنا بعضاً؛ لأنّ أصحاب الإسلام السياسي غالباً ما يقومون ببيع الأوهام للناس، وهذا ما فعلته الكنيسة في أوروبا أيام انحطاطها؛ بحيث كانت تقوم ببيع (صك غفران) وهو عبارة عن وثيقة كانت تمنح من الكنيسة الكاثوليكية مقابل مبلغ مالي يدفعه الشخص للكنيسة يختلف قيمته باختلاف ذنوبه، بغرض الإعفاء الكامل أو الجزئي من العقاب على الخطايا ثم تمنح له تأشيرة الدخول إلى الجنة!

الإصلاح الديني يبدأ من تأصيل حقوق الإنسان في الشريعة والتجربة الإيمانية في العقيدة

هـذا مـا تفعلـه حـركات الإسـلام السـياسي، فخطابهـا الديـني هـو خطـاب عاطفـي مثـالي مهمتـه دغدغـة عواطـف المسـلمين وجمـع مـا يمكـن جمعـه مـن الأصـوات في الانتخابـات للوصـول إلى السـلطة، دون معالجـة همـوم المواطنـين ومشـاكلهم الـتي يتخبطـون فيهـا، لهـذا نحـن بحاجـة ملحّـة للنظـر بعمـق في مقاصـد شريعتنـا الإسـلامية، الـتي غايتهـا سـعادة الإنسـان وحريته وغذائه وسـلامته وأمنـه واسـتقراره.. هـذه المقاصـد الإسـلامية والإنسـانية الواسـعة تُعـد محطـات انطـلاق تأسيسـية وجذريـة لخطابـات التجديـد الديـني وعقلنـة الشـؤون الإسـلامية ومؤسسـاتها، لـكي يتـم قطـع الطريـق عـلى دعـاة الفتنـة وتجـار الديـن.

*** ما هو مستقبل الدعوة في كل أمريكا اللاتينية برأيكم؟**

أنـا جـد متفائـل بمسـتقبل الدعـوة في البرازيـل وأمريـكا اللاتينيـة عمومـاً، لكـن مـن بـاب غيرتنـا عـلى اسـتمرارية نـور الإسـلام ببـلاد أمريـكا اللاتينيـة وحـتى لا يكـون تفاؤلنـا أحلامـاً وخرافـات نـود أن نلفـت انتبـاه القائمـين عـلى شـؤون الجاليـات المسـلمة إلى مراعـاة السـبل التاليـة:

- لا بـد مـن إيجـاد صنـدوق وقـف خـيري أو بيـت الـزكاة لدعـم مشروعـات الدعـوة وبرامجهـا وتغطيـة احتياجـات الجاليـة دون أن تمـد يدهـا لأحـد، بـل

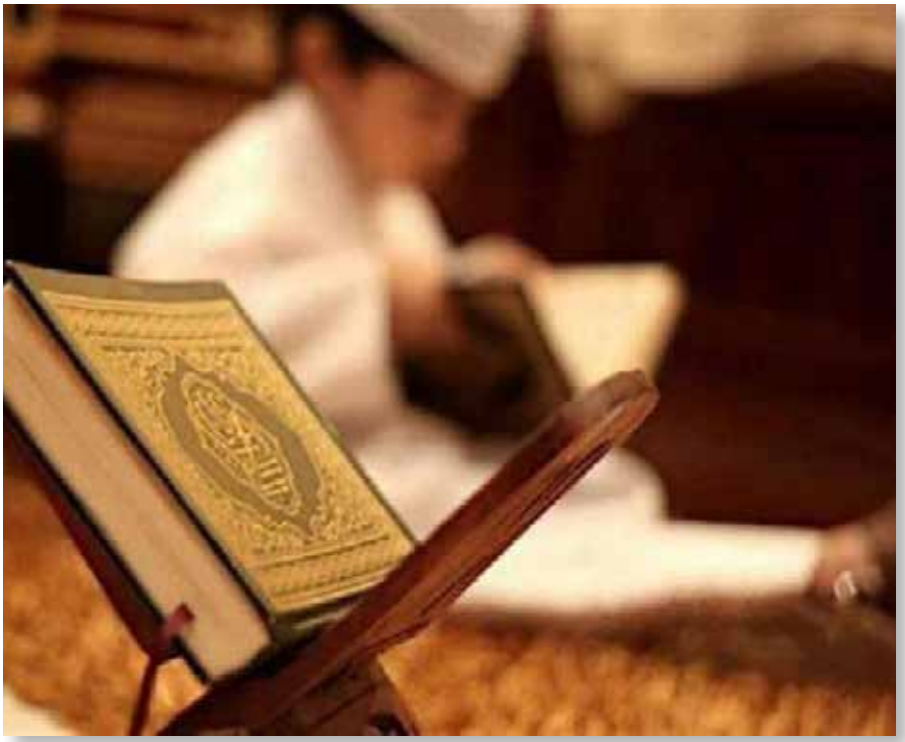

لا يمكن المحافظة على الهوية الإسلامية للأجيال الصاعدة في بلاد الاغتراب إلا من خلال العناية بتحفيظ القرآن الكريم

يمكـن مـن خلالـه إيجـاد مشـاريع اسـتثمارية تفتـح فـرص العمـل لأبنـاء الجاليـة وللمسـلمين الجـدد والمؤلفـة قلوبهـم، وتشـارك السـلطات المحليـة والدوليـة في التنميـة الاقتصاديـة والاجتماعيـة، وبهـذا تضمـن مسـتقبلاً أفضـل واسـتمرارية لهـذا الديـن الإسـلامي في هـذه البـلاد.

-تأسـيس معاهـد علميـة للدراسـات الإسـلامية مهمتهـا تعليـم العربيـة والتعريـف بالإسـلام لغـير المسـلمين والراغبـين في تعليـم اللغـة العربيـة ومعرفـة الإسـلام، ونـشر وترجمـة أهـم مـا يمـس الإسـلام والدعـوة إليـه، وربـط العلاقـات بالأوسـاط الجامعيـة طلابـاً وأبحاثـاً، والدخـول في تعـاون

مـع كبـار الشـخصيات الثقافيـة والجامعيـة والفنيـة والسياسـية، وتزويـد المكاتـب والمؤسسـات المهمـة الأخـرى بالكتـب الإسـلامية المترجمـة، وتنظيـم محـاضرات ونـدوات ومؤتمـرات في موضوعـات إسـلامية وخصوصـاً الـتي تنصـب حـول التعايـش بـين الحضـارات والشـعوب والديانـات السـماوية، مـع توجيـه الدعـوات إلى كبـار الشـخصيات وأسـاتذة الجامعـات الغربيـة لزيـارة البلـدان العربيـة والإسـلامية لتوثيـق العلاقـات الثقافيـة والاجتماعيـة والدبلوماسـية.

- العمـل عـلى إنشـاء شـبكة اتصـالات معلوماتيـة لنـشر الثقافـة الإسـلامية والحضـارة العربيـة، مـع السـعي عـلى إنشـاء فضائيـات وقنـوات تلفزيونيـة إسـلامية، فـإن تعـذر ذلـك فـنرى فتـح نافـذة إعلاميـة عـن طريـق إحـدى القنـوات -ولـو سـاعات محـددة- يتـم مـن خلالهـا تقديـم الإسـلام في صـورة صحيحـة وبأسـاليب عصريـة مشـوقة، ويقـوم بهـذه المهمـة مـن هـو أهـل لذلـك مـن أصحـاب الاختصـاص، ويمكـن إعـداد إعلاميـين مـن أبنـاء الجاليـة بعـد تزويدهـم بالمـادة والأفـكار الـتي يـراد نشرهـا عـبر الجهـاز الحسـاس والمهـم والـذي أصبـح الداعيـة رقـم واحـد سـلباً أو إيجابـاً.

-إنشـاء مؤسسـات تجاريـة واقتصاديـة مربحـة، وبذلـك يتوفـر العمـل لمـن حسـن إسـلامه، مـع تخصيـص نسـبة مـن الربـح للدعـوة الإسـلامية، مـن بنـاء المسـاجد والمـدارس وتنظيـم المخيمـات الشـبابية ومسـاعدة المحتاجـين والأرامـل. وبهـذا نكـون قـد سـاهمنا في دعـم اقتصـاد الدولـة الـتي نعيـش فيهـا، وأعطينـا صـورة مشرقـة وضـاءة للإسـلام والمسـلمين في تلـك الـدول.

- ولا يمكـن المحافظـة عـلى الهويـة الإسـلامية للأجيـال الصاعـدة في بـلاد الاغـتراب إلا مـن خـلال العنايـة بتحفيـظ القـرآن الكريـم وتعليـم اللغـة العربيـة،

التجديد ظاهرة صحية وضرورة اجتماعية تمليها ظروف الحياة المتجددة وتطوراتها المتلاحقة

ولهذا نلحّ على جميع المراكز والجمعيات والمساجد والمتصدرين للدعوة أن يقوموا بفتح فصول تعليمية في مراكزهم ومساجدهم، وإيجاد الحوافز لتشجيع الطلاب والطالبات للإقبال على التعلم وتقديم النموذج الحي للتعليم الإسلامي، ومن خلاله نربط أبناء الجاليات الإسلامية بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وحب أوطانهم الأصلية، وهذا يحميهم من شرور الإعلام المائع والفاسد ومن فكر التكفيريين والمتنطعين في الدين.

- ضرورة الاهتمام بشؤون المرأة المسلمة المهاجرة في البرامج التعليمية والدعوية والاجتماعية، والتأكيد على ضرورة صيانة كرامتها وعزتها، وتفعيل المؤسسات واللجان الاجتماعية المتعلقة بشأن الأسرة، لتكون المرأة داعية وقائدة الأسرة وموجهة الأطفال إلى شاطئ الخير والنجاح والفلاح.

- جعل المذهب المالكي مذهباً رسمياً للجاليات الإسلامية بالدول الغربية؛ نظراً لتميزه عن باقي المذاهب الأخرى السنية بعدة مزايا وخصوصاً على مستوى أصول الفقه المتمثلة في القرآن والسنة وإجماع الأمة، وعمل أهل المدينة والقياس والاستحسان والاستقراء، بالإضافة إلى قول الصحابي وشرع من قبلنا والاستصحاب والمصالح المرسلة وسد الذرائع والعرف، مع الأخذ بالأحوط ومراعاة الخلاف، ناهيك عن القواعد الفقهية المتفرعة عنها

> لم يكن المجتمع الإسلامي في فترة من فترات تاريخه الطويل أحوج إلى التجديد منه اليوم

والتي أوصلها بعض فقهاء المالكية رحمهم الله تعالى إلى ١٢٠٠ قاعدة تشمل جميع أبواب الفقه ومجالاته. فالمالكية أخذوا بجميع هذه الأصول بينما غيرهم لم يأخذ إلا ببعضها ورد الباقي؛ الأمر الذي أوصل بعض أصحاب هذه المذاهب والمدارس والإيديولوجيات إلى الباب المسدود في استنباط الأحكام ومسايرة الواقع المعاصر والمتجدد.. وهذا قد أدى إلى التنطع والتشدد والغلو والانكماش على الذات، والنتيجة خروج الأمة الإسلامية عن الركب الحضاري وصناعة التاريخ البشري والإنساني.

هذا التنوع في الأصول والمصادر، والمزاوجة بين العقل والنقل والأثر والنظر وعدم الجمود على النقل أو الانسياق وراء العقل هي الميزة التي ميزت المذهب المالكي عن مدرسة المحدثين ومدرسة أهل الرأي، وهي سر اعتداله ووسطيته وانتشاره والإقبال الشديد عليه؛ بسبب انفتاحه على غيره من المذاهب الفقهية والشرائع السماوية السابقة، واعترافه بالآخر واستعداده التام للتعايش معه والاستفادة منه بفضل قاعدة «شرع من قبلنا شرع لنا» ما لم يرد ناسخ التي اتخذها الإمام مالك أصلاً من أصوله، وهكذا أخذ المالكية بمشروعية الجعالة والكفالة من شريعة يوسف عليه السلام.

"نحتاج إلى خطاب ديني جديد وفكر جديد تصيغه عقول متنورة وأفهام متبصرة"

ولمرونـة المذهـب المالـكي ندعـو شـخصياً قـادة الجاليـات الإسـلامية ورموزهـا وأئمـة المسـاجد الأخـذ بـه واعتمـاده رسـمياً في بـلاد الاغـتراب، ومـن الأكيـد سيسـاهم في حـل الكثـير مـن المشـاكل والهمـوم الـتي تتخبـط فيهـا الجاليـات الإسـلامية بالـدول الغربيـة، وعـلى رأسـها ظاهـرة «الإسـلاموفوبيا» التي أتـت كـرد فعـل ونتيجـة لظهـور وسـيطرة الفكـر الإخـواني والسـلفي التكفـيري واسـتحواذه عـلى الكثـير مـن عقـول الشـباب الإسـلامي في بـلاد الاغـتراب .

عبيد الخليفي: التنظيمات الإرهابية ثمرة جماعات الإسلام السياسي

حاوره: عيسى الجابلي
صحفي تونسي

قال الباحث التونسي، عبيد الخليفي إنّ مفهوم الجهاد أعيد إحياؤه بقوة بعد فشل التجارب الإصلاحية في القرن الماضي، وتم الانتقال من الاجتهاد والعقل إلى الجهاد مع جماعات الإسلام السياسي.

وأوضح الخليفي، في حواره مع «حفريات»، أنّ لأعمال الجماعات الجهادية سوابق ومرجعيات في التاريخ من حرق وتحريق وعنف وقتل واحتطاب، مؤكداً أنّ هذه الجماعات الجهادية هي «ثمرة لجماعات الإسلام السياسي».

ونوّه الخليفي إلى أنّ جماعات الإسلام السياسي لم تمارس بعد ما يكفي من النقد الذاتي الذي يؤهلها للتأقلم مع شروط الدولة المدنية والحرية والديمقراطية.

وعبيد الخليفي أستاذ باحث في الجامعة التونسية، متخصص في الحركات الجهادية والإسلام السياسي، له كتاب «الجهاد لدى الحركات الإسلامية المعاصرة: من جماعة الإخوان المسلمين إلى تنظيم الدولة الإسلامية»، وعدة دراسات في نفس المجال، وهو إلى هذا سجين سياسي سابق في أحداث الحوض المنجمي في العام ٢٠٠٨.

وهنا نص الحوار:

مفهوم الجهاد قديماً وحديثاً

*** انكببت في بحثك الأكاديميّ على مصطلح الجهاد في تلويناته المختلفة قديماً وحديثاً، ما الفرق بين مضامين هذا المصطلح آن نشأته وبين ما يعنيه اليوم مع الجماعات «الجهاديّة» المعاصرة؟**

الجهاد مفهوم مركزي في التجربة التوحيدية الإسلامية، غير أنّ تاريخية المصطلح تبرز كم التأويل والانزياح الذي مارسه العقل الفقهي والعقل السياسي على هذا المفهوم، فالجهاد عند أغلب الإسلاميين هو عنف بشري تدثر بالمشروعية الدينية والتنزيل القرآني الكريم، والجهاد هو قتال، غير أنّ النص القرآني الكريم في بداية تشريعه للحرب لم يستعمل مصطلح الجهاد، بل حضر فعل القتال، والآية الكريمة كانت صريحة في الإذن بالقتال (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا * وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ.٢٢/٣٩)، ويبدو أنّ النص القرآني الكريم كان على وعي بأن فعل القتل والقتال هو فعل استثنائي، فكان عليه أن يتمايز في الفعل والمصطلح والمرجعية، وقد تساوت استعمالات القرآن الكريم لمفردتي جاهد وقتل (٢٥ مرة)، لكن الفارق أن كلمة «جاهد» و«جهاد» لا توحي مباشرة إلى الفعل الحربي العنيف، بل توحي في أغلبها بالفعل المرتد نحو الذات ولا علاقة له بالآخر في معنى الجهد الذاتي للانسجام مع الدعوة الإسلامية والتضحية لأجلها.

منح العقل الفقهي التاريخي المسلمين مسنوداً بالمدونات التاريخية والإخبارية شروط تحقيق حاكمية الله في الأرض على العنف

بعد غياب النبي محمد، عليه السلام، بتمام التأسيس العقائدي ودخول التدين الإسلامي مرحلة التأسيس الجغرافي والسياسي بداية من القتال في حروب الردة سيتماهى فعل الجهاد مع فعل القتال، وقد كان المسلمون الأوائل بحاجة للحديث عن الممارسة الحربية ضمن السياق المقدس لفعل الجهاد وما يحمله الفعل من دلالة قدسية في تحقيق المشروعية الدينية، ومن ثم قامت الدولة/الدول الإسلامية على الفتح والقتال تحت راية الجهاد في سبيل الله. منح العقل الفقهي التاريخي المسلمين مسنوداً بالمدونات التاريخية والإخبارية شروط تحقيق حاكمية الله تعالى في الأرض على العنف الذي تسلطه الجماعة المسلمة/المؤمنة على الآخر من أجل الطاعة والإكراه السلطوي المتذرع المقدس وفقا لمفوهمهم.

ولعل الجماعات الجهادية المعاصرة قد رفعت الحرج عن جماعات الإسلام السياسي في تصورها المرتبك لمفهوم الجهاد القائم عل أن: الجهاد هو عنف مشروع ومقدس يفرضه الدين على الذات البشرية لتحقيق إرادة الله في حكم البشرية، والخلاصة أن خروج المفهوم عن تاريخيته جعل التناقض شاسعاً بين الحاضر والسلف.

*** ولكن القول بتاريخية المفهوم قد يوقعنا في مأزق التبرير للجماعات الإرهابية التي تتخذ من واقع المسلمين المعاصر حجة لتنزيل هذا المفهوم في الراهن واستخدامه لمحاربة «الغزاة» أو «الكفار»، ما رأيك؟**

يبدو مفهوم التاريخية أكثر تعقيداً لدى العقل الجهادي والإسلامي، ذاك العقل الذي يرى التاريخ ماء واحداً يرفض التطور الزمني والاختلافات المرجعية فيما هي بين الحاضر والماضي، وفكرة السلفية لا تتعلق بالحركات السلفية وحدها، ولكن كل عقل يبحث في الماضي عن تجربة يراها نموذجية ليستعيدها تكراراً على أنها صالحة للحاضر هو عقل سلفي بامتياز، فحتى التجارب الدينية كانت ثورة على فكرة الآباء وتقديس معتقداتهم؛ فالإسلام الحركي بشقّيه؛ السياسي والجهادي، يمتلك فكراً خاملاً غير خلاق؛ لأنه يتكئ على الماضي ليعيد استنساخه. يريدون استنساخ تجربة الجهاد لواقعنا المعاصر غير مكترثين بالشروط المرجعية لواقعنا. قتال الدين في الماضي له شروطه، وحروب اليوم لها شروطها المعاصرة في تحرير الأرض وتحقيق المصالح الاقتصادية والسياسية، وعليه فإنّ تفعيل المرجعية الدينية التاريخية في العنف يجعل العنف وفقا لمفهومهم مقدساً لجماعة تعتقد أنها تمتلك الحقيقة المطلقة من عند الله، وبالتالي محاربة كل البشرية التي تعتقد أنها على الجاهلية مطلقاً.

من جهاد القلم إلى جهاد السيف

*** ما الّذي جعل هذا المصطلح يعاد إحياؤه في القرن العشرين إلى أيّامنا بهذا الزّخم؟**

منـذ القـرن المـاضي حـين فشـل مـا عـرف بمـشروع الإسـلام العالمـي مـع نخبـة المصلحـين ذوي التكويـن الفلسـفي العميـق، فُتـح المجـال لـبروز الإسـلام العامـي مـع نخبـة مـن الإسـلاميين الحركيـين ذوي التكويـن العقائـدي الكلاسـيكي، ومنـذ القـرن المـاضي بـدأ التحـول مـن جهـاد القلـم إلى جهـاد السـيف، أو مـن الاجتهـاد إلى الجهـاد، فقـد عـاد المفهـوم زمـن الاسـتعمار والتبعيـة في سـياق التنويـر الفكـري والتحريـر لـلأراضي، لكـن في سـياق الدولـة الوطنيـة كان وسـيلة لتحقيـق حلـم بعيـد هـو الخلافـة الإسـلامية، بـل وكشـفت الحـركات الإسـلامية عـن براغماتيـة في توظيـف مـا أسـموه الجهـاد المقـدس مـن أجـل إزاحـة الخصـوم وبلـوغ سـدة الحكـم والسـيطرة عـلى مفاصـل الدولـة. لـن تجـد الحـركات الجهاديـة الـتي تكفـر بالممارسـة الديمقراطيـة مـن وسـيلة للإقنـاع غـير الإخضـاع بمـا يطلقـون عليـه العنـف المقـدس.

*** تتّخـذ الجماعـات الإرهابيـة اليـوم الجهـاد ونـصرة الديـن شـعارات لتبريـر أعمـال الذبـح والخطـف والحـرق والتخريـب الـتي تقـوم بهـا، إلى أيّ مـدى تعكـس هـذه المزاعـم حقيقتهـا؟ ومـا أبـرز أهدافهـا الحقيقيـة مـن وجهـة نظـرك؟**

مـن الشـجاعة القـول إنّ هـذه الممارسـات للجماعـات الجهاديـة لها جذور في تاريخنـا، فالحـرق والتحريـق والتمثيـل بالجثـث والخطـف والاحتطـاب مـورس منـذ عهـود قديمـة، ولذلـك يـرون ممارسـاتهم اليـوم بـكل مـا فيهـا مـن وحشـية مصـدرَ فخـر وترهيـب للأعـداء وأنهـا مـن صلـب الفعـل الجهـادي، وبالتـالي

> **لم تمارس جماعات الإسلام السياسي من النقد الذاتي ومن المراجعات ما يجعلها تتصالح مع مفهوم الدولة المدنية**

فتلك هي حقيقتهم بأسانيدهم وأدبياتهم المرجعية، وهي ممارسات تعلن عن أهدافها الحقيقية في تدمير كل ما بنته الحداثة وجعلتهم يعيشون غربة عن الدولة الحلم... ولقد كان لهم في تجاربهم شرقاً وغرباً من الإمارة إلى الدولة ذاك الطموح المنشود، ولذلك سيكونون أكثر وحشية في المستقبل لأن الخيبة لم تصبهم وهم يرون الحلم يتحقق في قيام دولتهم العام ٢٠١٤، ويرونها معركة خاسرة دون أن يخسروا حربهم الأزلية... لعل أدبياتهم تمنحهم رؤية شاملة عجزت الدراسات الحديثة عن تفكيك رموزها لمقاومتها من الداخل العقائدي والفكري والإستراتيجي.

الجماعات الجهادية سليلة الإسلام السياسي

*** تعلن جماعات الإسلام السياسي اليوم براءتها من «القاعدة» و«داعش» و«النّصرة» و«بوكو حرام» وتدين أعمالها وتبرّئ منها الإسلام والمسلمين، هل ترى فعلاً أنّ جماعات الإسلام السياسي التي تأسست على شعار الآية الكريمة «وأعدّوا لهم» بالأساس قد تخلّت اليوم عن العنف والإرهاب؟**

لم نفصل القول بعد في التقاطعات بين الإسلام السياسي والإسلام

الجهادي، ويمكن أن نفترض أنّ الإسلام الجهادي هو ثمرة فعلية لجماعات الإسلام السياسي عند توفر شرطين: إما من خلال الضغط على الإسلام السياسي، وإما فشل جماعات الإسلام السياسي في ممارسة الحكم.

فكلما تعرضت جماعات الإسلام السياسي لإكراهات واقع الدولة الوطنية والضغوطات الإقليمية والدولية، تحول سريعاً إلى ممارسة ما كان قد «أعد لهم»، ومهما حاولت جماعات الإسلام السياسي التنكر لإفرازاته فهو لا يمكن أن ينكر أنّ زعامات الحركات الجهادية تربت ونشأت على الأدبيات الإخوانية من سيد قطب إلى عبد الله عزام إلى أبي مصعب السوري.. ولنقل إنّ الحركات الجهادية كانت ثمرة ثلاثة روافد أساسية: الرافد القطبي والرافد الوهابي والرافد المودودي، ونحن نعرف بالنصوص علاقتهم بمختلف حركات الإسلام السياسي.

*** إذن ما حقيقة تبرؤ حركة النهضة في تونس مثلاً من العنف والإرهاب؟**

الحسابات السياسية هي التي منعتنا من تفكيك لغز علاقة حركة النهضة بالعنف والإرهاب، لا تنفك حركة النهضة تنفي صلتها بالإرهاب، لكن حوادث بعينها كانت محل ارتباك وشكوك في ما يتعلق بالتنظيم الخاص، وفي ما يتعلق بحوادث باب سويقة وتفجيرات الفنادق.. إن السياق التونسي لم يمنح حركة الاتجاه الإسلامي سابقاً / النهضة اليوم

> منذ القرن الماضي بدأ التحول من جهاد القلم إلى جهاد السيف، أو من الاجتهاد إلى الجهاد

فعلاً عنيفاً متواصلاً، فقد كانت القبضة الأمنية لنظام بن علي أقوى وأشد، والثابت عندي أنّ العنف كان متبادلاً حسمه النظام بسرعة، كما نعتقد أنّ لحركة النهضة تنظيماً خاصاً وظيفته تحويل الجماعة السياسية إلى جماعة حكم تمارس العنف على المعارضين والمتآمرين.. وهذا ما ذكرته مذكرات القيادي المرحوم المنصف بن سالم. ما بعد الثورة قدمت حركت النهضة نفسها حزباً سياسياً يناهض العنف، لكن ما ظهر منها صمتاً وعوناً لعنف مدني عبر روابط حماية الثورة كان تواصلاً لبعض أنواع الاستعراض.

وهم التصالح مع الديمقراطية

*** هل يمكن لجماعات الإسلام السياسي، ومنها من ينخرط اليوم في الحكم مثل حركة النّهضة في تونس، أن تتصالح مع الديمقراطية وتقبل بأسس الدولة المدنية برأيك؟**

لا نعتقد أنّ جماعات الإسلام السياسي قد مارست من النقد الذاتي ومن المراجعات ما يجعلها تتصالح مع مفهوم الدولة المدنية، ولا يمكن رمي كل الحركات في خانة واحدة، ولكن يمكن أن نعطي ثلاثة أمثلة: المثال

المـصري الأكـثر تعقيـداً، فهـو مـازال يعيـش شرط البيعـة، ومـا عانـاه الرئيـس مـرسي في الـولاء للمرشـد أو الدسـتور؛ المثـال المغـربي معقـد مـن حيـث الـولاء للقـصر وأمـير المؤمنـين؛ أمـا المثـال التونـسي فـإن حركـة النهضـة واقعـة تحـت ضغـط المجتمـع المـدني الـذي أرغمهـا عـلى التنـازل كثـيراً لصالـح الدولـة المدنيـة ولعبـة الديمقراطيـة.

ومـن خـلال هـذه الأمثلـة نـدرك أن تصالـح الإسـلام السـياسي مـع الدولة المدنيـة والديمقراطيـة لا يكـون إلا تحـت الإكـراه والضغـط.. وغيـاب الضغـط سـيجعل هـذه الحـركات وفيـة لأدبياتهـا الكلاسـيكية المركزيـة لنشـوء جماعـة الإخـوان المسـلمين.

*** أي دور يمكـن أن تلعبـه الأحـزاب الديمقراطيـة في هـذا الخصـوص في ظـل ضعفهـا وعـدم قدرتهـا عـلى اكتسـاح الصنـدوق؟**

قـوة الأحـزاب الإسـلامية تـأتي مـن بسـاطة المـشروع وقدرتـه عـلى التعبئة، يضـاف إليهـا مبـدأ الطاعـة المغلفـة بالشـورى، وضعـف الأحـزاب الديمقراطيـة ناتـج عـن عجزهـا في التجـذر في المجتمـع، وعـدم قدرتهـا عـلى تعبئـة الحـركات الاجتماعيـة في مـشروع التحـرر السـياسي والاقتصـادي، يضـاف إلى ذلـك تضخـم الـذوات لقيـادات الأحـزاب الديمقراطيـة، وقـد عجـزت هـذه القـوى التقدميـة عـن اسـتثمار الانتفاضـات الشـعبية المتتاليـة.

المفكر غالب الشابندر: الإسلام السياسي أضاع العراق... وبسببهم اهتز الدين لدى الشباب

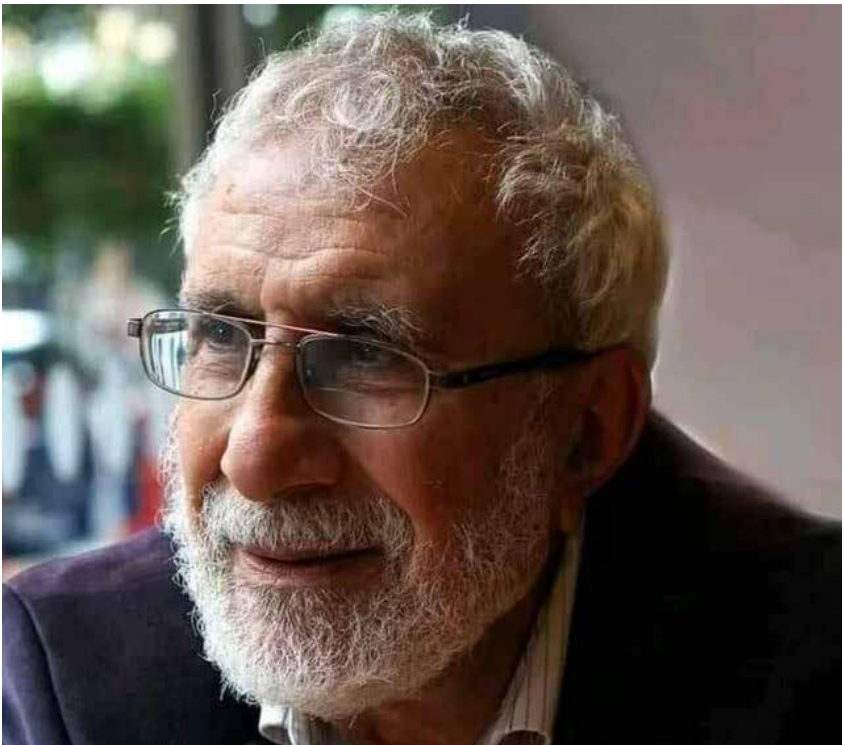

حاوره: جبار الساعدي
كاتب عراقي

يُحمّل المفكر العراقي غالب الشابندر قوى الإسلام السياسي، الشيعي تحديداً، مسؤولية فشل التجربة الديمقراطية، وإمكانية إصلاح الحكم في العراق. ويعتقد أنّ إرساء أمريكا لمبدأ المحاصصة الطائفية للنظام السياسي الجديد في نيسان (أبريل) ٢٠٠٣، مهّد الطريق لوصول السياسيين الباحثين عن المغانم، لا عن مصلحة وادي الرافدين.

الشابندر، هو ابن حزب الدعوة الإسلامية لأعوام طويلة، لكنّه غادر الحزب لحظة وصوله إلى السلطة قبل أكثر من عقد، ويرى الداعية السابق في شخص الأمين العام للدعوة نوري المالكي، أنّه واضع أسس خراب الدولة العراقية، خلال الأعوام المنصرمة. معتقداً أنّ الوطن أهم من العقيدة، لأنّه بدون الأوطان تضيع الأديان، وهذا ما يعيبه على إيران العقائدية، وفصائلها المسلحة في بلاده التي تخضع لهيمنة القرار السياسي في طهران.

«حفريات» التقت بالمفكر العراقي غالب الشابندر، وتداولت معه عدة محاور تتعلق بنشأته، وماضيه، وحاضره، وآرائه فيما يجري في الراهن السياسي العراقي.

وهذا نص الحوار:

*** مـا أسـباب خروجـك مـن حـزب الدعـوة الإسـلامية، وأنـت كنـت في الخـط المتقـدم داخـل الحـزب؟**

عـدة أسـباب دعتـني للخـروج مـن حـزب الدعـوة الإسـلامية؛ أوّلهـا أنّي كائـن إنسـاني مـن الصعـب أن ينضبـط في حـزب. فأنـا كائـن أعشـق الحريـة في طريقـة الحيـاة الاعتياديـة، مـن حيـث التفكيـر والكتابـة والنشـاط، بينمـا الانتمـاء الحـزبي يقيـد الإنسـان، يقيـده فكريـاً إلى حـد مـا، لأنّ مـن المبـادئ الحزبيـة أن تلـتزم فكـر الحـزب. وبيـني وبـين حـزب الدعـوة تبايـن إيديولوجـي، فأنـا رجـل ذو جـذور ماركسـية شـيوعية، ومـا تـزال هـذه الجـذور تعشـعش في داخـلي بقـوة وعنفـوان، لذلـك لـم أكـن إسـلامياً خالصـاً بالمعـنى الـذي يفهمـه الآخـرون.

*** مـا السـبب الـذي جعلـك تتحـول مـن الخـط الشـيوعي إلى الخـط الإسـلامي، ومـن ثـم رفضـت الأخـير بسـبب جـذورك الأولى؟**

هنـاك نقطـة مهمـة في تركيبـة العقـل العـربي أو الإسـلامي، هـو أنّ الشـخص إذا غـير اتجاهـه السـياسي، يُتهـم بالانتهازيـة، وهـذا غـير صحيـح في بعـض الأحيـان، لأنّـه ليـس كل مـن غـيّر أفـكاره أو ميولـه أو قناعاته السـابقة يكون انتهازيـاً بالـضرورة. الإنسـان قـد يتغـيّر مـن فكـر إلى فكـر نتيجـة طبيعتـه النهميـة للقـراءة، وعائلـتي تقريبـاً سياسـية، والـدي حسـن الشـابندر كان مـن جماعـة توفيق السـويدي في العهـد الملـكي، وأخـي الأكـبر كان في الحـزب الشـيوعي العـراقي، وطبيعـة عائلـتي مـن جهـة الوالـدة كانـت يسـارية أيضـاً، وحينمـا فتشـت عـن

الشابندر: عدة أسباب دعتني للخروج من حزب الدعوة الإسلامية؛ أوّلها أنّي كائن إنساني من الصعب أن ينضبط في حزب

عمل سياسي كانت بداياتي المبكرة جداً مع الحزب الشيوعي، وكان مسؤولي الحزبي شيوعياً صلباً، وحينما كان يدرّسني كتابَي ستالين (المادية الديالكتيكية) و(المادية التاريخية)، ترجمة خالد بكداش، اصطدمت مع الطرح المناوئ المتعلق بالغيبيات، واكتشفت أنّي غير منسجم مع هذا الفكر من جانبه العقائدي، وأنّي منسجم فقط من جانبيه الاجتماعي والاقتصادي.

*** خلال الأعوام الأخيرة يشاهدك الكثيرون متحاملاً على الأمين العام لحزب الدعوة الإسلامية، رئيس الوزراء السابق نوري المالكي... هل الدافع شخصي وراء هذا التحامل والهجوم؟**

تربطني مع الأخ نوري المالكي علاقة صداقة تمتد منذ أيام المعارضة

ضـد صـدام حسـين، ومـا زال التواصـل بيننـا عـبر أصدقـاء معينـين، وأُرسـل لـه كتبـاً، ويقـول عـنّي خـيراً. ولكـنّي أخالفـه في المنهـج السـياسي، فأنـا أعتقـد أنّ المالـكي وضـع أسـس خـراب العـراق، كمـا أنّ القيـادات السياسـية السـنّية وضعـت أسـس الطائفيـة في البـلاد، وكذلـك الأكـراد الذيـن وضعـوا أسـس تفكيـك وحـدة الوطـن، فضـلاً عـن الحشـد الشـعبي الـذي وضـع أسـس الفـوضى في العـراق.

*** كيـف وضـع الحشـد الشـعبي العـراقي أسـس الفـوضى في البـلاد، وهـو مشـارك مـع القـوات الأمنيـة الأخـرى في تحريـر المـدن المحتلـة مـن داعـش؟**

يخضـع الحشـد الشـعبي للعقيـدة المذهبيـة، أكـثر ممّـا يخضـع للقيـم الوطنيـة العراقيـة، والعقيـدة هـي بوصلـة التفكـير لديهـم، أي يأتمـرون بأمـر المرشـد الديـني العقائـدي، وهـذا ينـافي مصلحـة الوطن. أمّـا مشـاركتهم في عملية تحريـر المـدن مـن داعـش، فقـد كان بدافـع عقائـدي أكـثر ممّـا هـو وطـني، لأنّ العقيـدة المذهبيـة تطلبـت ذلـك. وأنـا عنـدي الوطـن أهـم مـن العقيـدة، لأنّـه إذا ضاعـت الأوطـان ضاعـت الأديـان. هنـا، أود أن أذكـر أنّي لا أنكـر دور الحشـد الشـعبي في تحريـر تلـك المـدن، وهـذا لا ينفـي دور الجيـش الوطـني، والشرطـة العراقيـة، أيضـاً في ذلـك، لأنّ هنـاك محـاولات إعلاميـة تقلـل مـن دور الجيـش والشرطـة في عمليـات التحريـر.

يخضع الحشد الشعبي للعقيدة المذهبية، أكثر ممّا يخضع للقيم الوطنية العراقية

*** في مؤلفاتك لم نرَ الحضور العقائدي حاضراً ولا ذكريات المنفى في إيران.**

بالعكس، كتبتُ في العقيدة العديد من الكتب، ولا سيّما في جانب التفسير القرآني، والتنظيم الاجتماعي، والاجتماع الديني، وكيفية تأهيل المجتمع وفق القيم الإسلامية الإصلاحية المعتدلة. وناكفتُ وحاربتُ التطرف الديني بكل أشكاله المذهبية الغلوائية. وأنا من أثارت كتبه الدينية الضجة داخل الأوساط المحافظة، كتبت عن الحوار في القرآن، والآخر في القرآن، وعن الحجاب في الإسلام بوصفه قضية ساخنة. أمّا إيران، فأنا كنت لاجئاً فيها مدة عامين أو أكثر. ولكنّهم طردوني بطريقة مؤدبة، ولم يمنحوني تأشيرة

العـودة إلى إيـران، حينمـا كنـت ألـبّي دعـوة معينـة في سـوريا. ومـردّ هـذا الأمـر، لأنّي كنـت بالضـد مـن الحـرب العراقيـة الإيرانيـة، ومشـاركة الشـباب العـراقي المعـارض في إيـران، في الحـرب ضـد بلادهـم. لـذا، كان صـوتي عاليـاً، وكتبـت المقـالات والبيانـات ضدهـم. حـتى حـزب الدعـوة الإسـلامية كان بالضـد مـن مواقـف إيـران في الحـرب، ولكنّـه كان يخـشى الإعـلان عـن ذلـك بشـكل مبـاشر وواضـح.

*** كيـف كانـت عودتـك إلى العـراق بعـد سـقوط صـدام حسـين؟ هـل كانـت مـع الأمريـكان الذيـن احتلـوا البـلاد في نيسـان (أبريـل) ٢٠٠٣، كمـا جـاء غالبيـة المعارضـين الإسـلاميين والعلمانيـين الذيـن حكمـوا فيمـا بعـد؟**

جئـتُ إلى العـراق عـام ٢٠٠٧ وليـس مـع الأمريـكان عـام ٢٠٠٣، وأنـا لسـتُ مـع فريـق ضـد آخـر مـن الذيـن حكمـوا العـراق بعـد صـدام حسـين. أنـا خـارج حـزب الدعـوة الإسـلامية، وبـدأت أكتـب للتجربـة الجديـدة لعلنـا نصلـح مـا دمّـره النظـام السـابق، لكـنّ التجربـة الجديـدة حينـذاك فشـلت، وأثبتـت فشـلها عـلى التـوالي. الإسـلاميون، بالتحديـد، مـن خـلال تجربتهـم بالحكـم، أسـاؤوا كثـيراً للقيـم الدينيـة الرفيعـة، بـل جعلـوا الديـن يهـتز في دواخـل الكثـير مـن الطبقـات الاجتماعيـة، ولا سـيّما طبقـة الشـباب. (الإسـلاميون) كانـوا نموذجـاً سـيئاً أثنـاء ممارسـة الحكـم، وأعطـوا صـورةً سـلبيةً عـن القيـم الـتي يحملونهـا والشـعارات الـتي أطلقوهـا يـوم مجيئهـم إلى السـلطة، حيـث كانـوا يجاهـرون بالنزاهـة، وفي عهدهـم انتعـش الفسـاد، وأضاعـوا العـراق بحجـة الديـن، وهـم أبعـد عـن الاثنـين مـن خـلال التجربـة المعاشـة.